مناقب
الإمام أحمد بن حنبل

للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي
«٥١٠ - ٥٩٧ هـ»

تحقيق
الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد : عبد الله ورسوله إلى الناس أجمعين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذه هى الطبعة الثانية من كتاب (مناقب الإمام أحمد بن حنبل) رحمه الله تعالى للحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، أصدرها ــ بعون الله عز وجل وتوفيقه ــ بعد أن نفدت الطبعة الأولى ، ووجدت نسخا أخرى من مخطوطات الكتاب استفدت منها فى تحقيقه ومقابلة أصوله ، فجاءت هذه الطبعة امتدادا للطبعة السابقة ، وإضافة جديدة لها ، وكسبا زكيا فى سوق العلم والمعرفة .

والفضل فى نشر هذه الطبعة وما سبقها لله عز وجل ثم للملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، إذ ما إن علم بأن الكتاب يحقق ويعد للطبع فى طبعته الأولى حتى أمر بتوزيعه على نفقته ، فأهدى بذلك إلى طلاب العلم والمعرفة كتابا من أهم الكتب وأحيا به أثرا مهما من آثار السلف الصالح ، والملك خالد رحمه الله فى باب الإحسان أشهر من أن يذكر فهو ملك صالح ، رقيق القلب ، عابد لله ، محب للعلم والعلماء ، حريص على نشر كتب السلف الصالح فى داخل المملكة العربية السعودية وخارجها ، حريص على الدعوة إلى الله وتبصير الناس بما

يجب عليهم تجاه خالقهم ، وتجاه بعضهم بعضا ، حريص على إكرام العلماء وتقديرهم وتشجيعهم للقيام بواجبهم تجاه العلوم الشرعية وبيان الحق للناس ، وهو فى هذه الصفات سالك مسلك والده الملك عبد العزيز رحمه الله وأسلافه من إخوانه الكرام الذين نشر فى عهدهم عشرات الكتب وأمهات المراجع ، وخلفهم من بعدهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ــ أيده الله وحفظه ــ الذى أولى العلم والعلماء جل اهتمامه ، وانطلق فى عهده انطلاقة لم يسبق لها مثيل ، إذ قامت الجامعات ودور العلم والمكتبات بإصدار الكثير من تلك الآثار العلمية المهمة . ومن يطلع على فهارس الكتب التى صدرت فى هذا العهد الزاهر يتبين له مقدار هذا الاهتمام .

ونحن عاجزون حقا عن شكرهم والثناء عليهم ، وحسبنا أن ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم خيرا لقاء ما نشروا من العلم الأصيل ، ولقاء ما أبدوا من اهتمام به ، وما بذلوا فى سبيله ، وأن يجعل ذلك فى موازين حسناتهم ، ويجعله من الصدقات الجارية المقبولة الدائمة الأجر والثواب .

أما الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، وكتاب مناقبه هذا ، وأهميته فقد بينت فى مقدمتى الطبعة الأولى وهذه الطبعة ما لو ذكرته أيضا هنا لاعتبر من قبيل التكرار الذى لا داعى له ، ويكفى أن أشير إلى أنه حين صدرت الطبعة الأولى المحققة منه تلقفها طلاب العلم ، واعتبروا الكتاب كسبا يضاف إلى كنوز المعرفة عن أسلافنا الأوائل الذين جاهدوا فى الله تعالى حق جهاده ، وأمضوا حياتهم فى خدمة الشريعة الإسلامية، وحفظ أصولها وفروعها، وبيانها للناس ونفى البدع والضلالات عنها ، وتقديمها للأمة صافية خالصة من الشوائب ، كما جاءت عن الله تبارك وتعالى الذى قال فى كتابه العزيز : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ ، وكما جاءت عن رسوله محمد ﷺ الذى قال : « تركتكم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك » .

وقد سلك أئمة الهدى من سلف هذه الأمة رحمهم الله تعالى هذا المسلك ، وساروا على هذا الطريق المضيء المستقيم ، لا يشتبه عليهم الحق من الباطل ، بل يميزونه منه كما يميزون الأشياء المحسوسة المسلمة المعلومة بالضرورة ، فهم يقومون بخدمة هذا الدين على علم وبصيرة وهدى ، يزين ذلك إخلاص وصدق وتقى وجد ، وابتغاء وجه الله تعالى والدار الآخرة ، والغيرة على الإسلام وشريعته المطهرة ، وعقيدته الخالصة أن تمس أو يلحق بها ما ليس منها .

والإمام أحمد رحمه الله ، فى حياته العلمية وجهاده فى سبيل المحافظة على شريعة الإسلام والانقطاع لخدمته ، ونشر علومه — هو فى كل ذلك ينطلق من هذا المنطلق ، ويتصف بتلك الصفات الحميدة التى ورثها عن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان .

ومن هنا جاء الاهتمام بكتاب مناقب الإمام أحمد ، لأنه يتحدث عن علم من أعلام أهل السنة والجماعة ، وإمام من أئمتهم ، كان كالجبل الراسخ لا يتزحزح عن الحق مهما ناله من الأذى ، يشهد بذلك موقفه ومحنته فى فتنة القول بخلق القرآن وكان كالمصباح يضيىء طريق السالكين يشهد بذلك مبلغه من العلم ، وكان قدوة فى الزهد فيما لدى الناس من المال والمتاع ، وقدوة فى الحيطة من الحرام والشبهات ، وحياته العامة والخاصة تشهد بذلك .

وفى هذا المقام يحسن أن أشير إلى أنه من فضل الله عز وجل على أهل السنة والجماعة أن مسلكهم وموقفهم من سلفهم الصالح فى باب الذكر الحسن لهم والثناء عليهم ، والتأليف فى صفاتهم ومناقبهم ، أنهم يذكرون ذلك على سبيل المحبة المشروعة ، ونسبة الفضل إلى أهله ، والتعريف بهم ، والإشادة بما كانوا عليه من العلم والفضل وحسن الخلق وسائر الصفات الحسنة ليقتدى الخلف بالسلف — بعيدا عن الغلو والإسراف والتعلق بالأشخاص ، إذ إن ذلك أوقع كثيرا من الفرق فى الضلال ، بل أوقعهم فى الشرك ، حيث وجهوا لهم كثيرا من

أنواع العبادة ، وصرفوا بذلك ما للخالق إلى المخلوق . فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ونسأله عز وجل أن يثبتنا على الحق ، ويصلح أعمالنا ، ويجعلها خالصة لوجهه الكريم .

رحم الله الإمام أحمد بن حنبل وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا لقاء جهاده وصبره وخدمته لدين الله الحنيف .. ورحم الله ابن الجوزى الذى ترك لنا كنزا من كنوز العلم والمعرفة عن علم من أعلام الإسلام ، وعالم من علماء الأمة الكرام .

ورحم الله الملك خالد بن عبد العزيز رحمة واسعة ، وأجزل له المثوبة لقاء ما قدم لدينه وأمته ، فتوزيع هذا الكتاب أثر من آثاره الحسنة ، إذ يوزع فى هذه الطبعة على نفقته رحمه الله امتدادا لتوزيع الطبعة الأولى ، فجزاه الله أحسن الجزاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه

عبد الله بن عبد المحسن التركى

مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة
الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين ، نبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ..

وبعد :

فإن الإمام أحمد – رحمه الله ورضي عنه – علم من أعلام المسلمين ، وإمام من كبار أئمتهم ، ومجاهد في سبيل الله صبر على الأذى فيه ، وضرب أروع الأمثلة ، حتى عد من القلائل في تاريخ البشرية .

يعرف ذلك عامة المسلمين ، وكثير من غيرهم ممن له صلة بتاريخ المسلمين وعلومهم .

أما تفصيل ذلك وجزئياته ، وجوانب أخرى من حياة وصفات هذا الإمام الجليل فإنها غير معروفة ، وتحتاج إلى جلاء وكشف وبيان . وصلتي بهذا الإمام العظيم ليست قريبة ، ولا وليدة المصادفة . بل كانت أيام الصبا والدراسة الأولى حيث يتلقى الطلاب عادة نبذًا تعرف بالأئمة والعلماء في كل عصر ، وتابعت الطريق في التعرف على الإمام أحمد رحمه الله أكثر عن طريق قراءة ما كتب عنه سواء مستقلا أو مع غيره من الأئمة والعلماء رحمهم الله جميعًا ، وعن طريق الاطلاع على ما استطعت الاطلاع عليه من آثاره وآرائه وجواباته مطبوعة أو مخطوطة ، مستقلة أو مبثوثة في ثنايا الكتب .

ومما لا شك فيه أن لتتلمذنا على علماءِ الحنابلة وكتبهم أثرًا واضحًا في ذلك ، كما أن لانتشار المذهب الحنبلي في الجزيرة العربية أثره أيضًا .

وازدادت صلتي بهذا الإمام ــ عليه من الله الرحمة والرضوان ــ عندما قررت أن أكتب رسالة الدكتوراه في أصوله ، وقد تم لي أثناءَ تلك الدراسة الاطلاع على أشياءَ كثيرة لم أكن أعرفها عن الإمام أحمد رحمه الله . فإذا كنت وغيري يعرفون أنه إمام في الحديث والفقه وأنه امتحن وصبر في سبيل الله على ما لم يصبر عليه أحد ، فإن هناك الكثير من الجوانب العظيمة التي لا يعرفها كثير من الناس ، مع شدة حاجة المسلمين إلى معرفتها .

ولقد شهد لهذا الإمام رحمه الله إمام من كبار أئمة الإسلام ذلكم هو الإمام الشافعي ــ رحمه الله ــ شهادة تكشف عن شيء من تلك الجوانب الخفية ، وتقرب إلى الأذهان ما كان عليه .

يقول الإمام الشافعي فيما رواه عنه الربيع بن سليمان : « أحمد إمام في ثمان خصال : إمام في الحديث ، وإمام في الفقه ، إمام في اللغة ، إمام في القرآن ، إمام في الفقر ، إمام في الزهد ، إمام في الورع ، إمام في السنة » .

وقال إبراهيم الحربي عنه : « أدركتُ ثلاثةً لم يُر مثلهم ، يعجز النساء أن يلدن مثلهم ، رأيت أبا عبيد القاسم بن سَلام ما مَثَّلته إلا بجبل نُفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحارث فما شَبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلًا ، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف ، يقول ما شاءَ ويمسك ما شاءَ » .

ويقول عبد الرزاق بن همام : « ما رأيت أفقه من أحمد بن حنبل ولا أورع » .

وقد تواتر مدحه والثناء عليه من كثير من مشايخه ، ومن كل من لقيه من طلاب العلم وغيرهم ، وليس هذا موضع الحديث عن ذلك ، فقد تكفلت به

كتب الطبقات والتراجم والمناقب ، سواء منها ما كتب عن الإمام أحمد باستقلال أو ما اشترك فيه مع غيره .

ولكن الذي يهمني التركيز عليه بمناسبة تقدمتي مناقبه ــ رحمه الله ورضي عنه ــ أمور :

١ ــ شدة تمسكه بالسنة والأثر :

اشتهر رحمه الله بشدة تمسكه بسنة رسول الله ــ ﷺ ــ واتباعه للآثار ، وحرصه على أن يكون له سلف فيما يقول ويفعل ، ولا ريب أن السنة النبوية الأصل الثاني لشريعة الإسلام هي متممة لكتاب الله ، وتعظيمها واتباعها من مستلزمات الإيمان ، والدين مصدره الأصلي الوحي ، وقد تعبد الله الأمة بتلقيه من ذلك المصدر ، ومجال الرأي في الشريعة هو مجال الاجتهاد في إلحاق ما لم يرد به نص بالمنصوص عليه ، وتطبق الوقائع على النصوص . وهو رأي له ضوابطه وحدوده .

والذين يتساهلون في السنة والأثر ، ويتوسعون في الرأي وقعوا في زلات شنيعة ، وتجرأوا على دين الله وهديه .

ولقد أنفق الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ جل حياته في تتبع ما أثر عن رسول الله ــ ﷺ ــ وصحابته ــ رضوان الله عليهم ــ وجمع من ذلك الشيء الكثير ، وكان يتحرج أن يقول في مسألة لم يتحدث فيها الصحابة رضوان الله عليهم .

روي أن أحمد ــ رحمه الله ــ استأذن زوجته في أن يتسرى طلبًا للاتباع فأذنت له فاشترى جاريةً بثمن يسير وسماها ريحانة ، استنانًا برسول الله ﷺ .

ويقول عبد الملك الميموني ــ رحمه الله ــ : « ما رأت عيني أفضل من أحمد ابن حنبل ، وما رأيت أحدًا من المحدثين أشد تعظيمًا لحرمات الله عز وجل وسنة نبيه ــ ﷺ ــ إذا صحت عنده ولا أشد اتباعًا منه » .

وقد روى المرّوذي عنه أنه قال : « ما كتبتُ حديثًا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به ، حتى مر بي في الحديث أن النبي ﷺ احتجمَ وأعطى أبا طيبةَ دينارًا ، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمتُ » .

وكان رحمه الله يعظم أهل السنة والأثر ، ويحث الناس عليه وينحي باللائمة على من ينتقصهم أو يقلل من شأنهم ، ويعرض عن أهل البدع ، وينهى عن كلامهم ويحرص على عدم مجالستهم ومحادثتهم ، روي أن أبا داود السجستاني — رحمه الله — قال : قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : أرى رجلا من أهل السنة مع رجل من أهل البدع أترك كلامه ؟ قال : لا ، تعلمه أن الذي رأيته معه صاحب بدعة ، فإن ترك كلامه وإلا فألحقه به .

وجاءَ في رسالة كتبها الإمام أحمد — رحمه الله — جوابًا على سؤال سأله إياه المتوكل عمن يتقلد القضاء بعد ذكر أشخاص من المبتدعة لا يجوز توليهم أعمال المسلمين قوله :

« وفي الجملة أن أهل البدع والأهواء لا ينبغي أن يستعان بهم في شيء من أمور المسلمين ، فإن في ذلك أعظم الضرر على الدين » .

رحم الله الإمام أحمد ، فقد وضع بهذا منهجا واضحًا لاحترام السنة والمتمسكين بها ، ولامتهان البدعة ، والمبتدعين والتحذير منهم والنصح صراحة لأئمة المسلمين فيمن يجب أن يقلد أمور المسلمين ، وأن لا يتقلدها من المبتدعة أحد .

٢ — من شدة حرصه على التمسك بالسنة ، ورجوع الناس إليها ، واعتمادهم في فتاواهم وأحكامهم على ما جاءَ فيها كراهيته لكتب الرأي والتصنيف فيها ، حتى يتوفر على النقل والسنة .

روي أن عثمان بن سعيد قال : قال لي أحمد بن حنبل : لا تنظر في كتب أبي

عبيد ، ولا فيما وضع إسحاق ، ولا سفيان ، ولا الشافعي ، ولا مالك ، وعليك بالأصل ، وكان يأمر من يسأله عن ذلك أن يلزم الحديث ويقرأ السنة .

روي أن رجلًا سأله ــ رضي الله عنه ــ فقال : أكتب كتب الرأي ؟ قال : لا ، قال السائل : فابن المبارك قد كتبها ، قال أحمد : ابن المبارك لم ينزل من السماء ، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق .

وكان أحمد ــ رحمه الله ــ ينهى عن أن يكتب كلامه أو يروى .

يروي أحمد بن الربيع بن دينار أن أحمد بن حنبل قال : بلغني أن إسحاق الكَوسج يروي عني مسائل بخراسان اشهدوا أني قد رجعت عنها .

ولا شك أن المقصود من ذلك التوفر على كتب السنة ، والتمكن من معرفة الحديث ، والابتعاد عن التقليد الضار واتباع آراء الرجال ، فليس ذلك طريق العلم الصحيح .

أما إذا تأهل الإنسان ، وعرف كتاب الله سبحانه وتعالى ، وسنة رسول الله ــ ﷺ ــ وما عليه سلف الأمة الصالح وأئمتها ، فلا مانع من أن ينظر في كتب الرأي والخلاف ، وأن يكتبها وينقلها عن أصحابها .

وقد نقل أصحاب الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ وغيرهم من مسائله وآرائه ما يدل على عدم تشدده وكراهيته لذلك في آخر حياته ، ولكن الأصل السنة والاتباع ، وعدم العدول عما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ .

٣ ــ ولأحمد ــ رحمه الله ــ مزية قلما توجد عند العلماءِ وبخاصة في العصور المتأخرة وهي مزية في نظري يجب أن يتصف بها العلماء ، ذلكم أن العلماء ورثة الأنبياء ، والأنبياء مبلّغون عن الله ومصلحون للناس بشريعة الله ، ومن لم يكن على شاكلتهم من العلماء والدعاة فلن يتحقق على يديه الخير .

هذه المزية التي اتصف بها الإمام أحمد ــ رحمه الله ورضي عنه ــ هي تعففه

عن أموال الناس ، وكف نفسه عن التطلع إلى شيء منها ، وانصرافه إلى رسالته الأساسية ؛ العلم النافع والعمل الصالح ، وبيان الحق للناس ، وهذه هي مهمة العلماء والمصلحين لا يأخذون من هذه الدنيا إلا ما يعينهم على تلك المهمة ، مع شدة صبرهم على اللأواء والمشقة ، لأنهم يحتسبون ذلك عند الله ، ويأملون في السعادة الأخروية ، وما فيها من نعيم مقيم . أما الدنيا فظل زائل ، وفترة محددة ، وطريق قصير يجب أن تنصرف الهمم فيها إلى ما هو أسمى من الشهوات والملذات المادية والجسدية .

لو تتبع القارئ الروايات التي رويت عن أحمد – رحمه الله – في هذا المعنى لتعجب كل العجب كيف يقوى الرجال على ذلك ! ولكنه الإيمان القوي ، والصبر والاحتساب ، والتوكل على الله .

وياليت أننا نتعظ بما نقرأ من سير هؤلاء الصالحين ، وياليت أن علماء المسلمين اليوم تكون لهم مراجعة لحياتهم وعلاقاتهم مع مجتمعاتهم على ضوء ما اختطه لنا الأسلاف وما كانوا عليه .

أعتقد أن ذلك لو كان واقتدى الخلف بالسلف ، وأصلحوا من حالهم لكان للعلماء شأن عظيم ، ولما آلت مجتمعات المسلمين اليوم ، وحالتهم إلى ما هي عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

يقول أحمد بن سِنان الواسطي : بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه عند خروجه من اليمن ، وأكرى نفسه من ناس من الحمالين عند خروجه ، وعرض عليه عبد الرزاق دراهم صالحة فلم يقبلها .

وروي عن الرمادي أنه قال : سمعتُ عبد الرزاق – وذكر أحمد بن حنبل – فدمعت عيناه وقال : « قدم وبلغني أن نفقته نفدت فأخذت عشرة دنانير وأقمته خلف الباب وما معي ومعه أحد ، وقلت : إنه لا يجتمع عندنا الدنانير ، وقد وجدت عند النساء عشرة دنانير فخذها ، فأرجو أن لا تنفقها حتى يتهيأ عندنا

شيء ، فتبسم وقال لي : يا أَبا بكر ، لو قبلتُ شيئًا من الناس قبلت منك ، ولم يقبل » .

وقد عرض على كثير من العلماءِ المعاصرين له المال فأَخذوه ، منهم : يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وأَبو مسلم المستملي .

وكان الإمامُ أَحمد ــ رحمه الله ــ يحتاج للنفقة أحيانًا فيبيع بعض ملابسه ويرهن البعض .

وقد وقعت للإمام أَحمد ــ رحمه الله ــ قصة في مكة المكرمة رواها ابنه عبد الله عن علي بن الجهم ، قال : كان لنا جار ، فأَخرج لنا كتابًا ، فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا : نعم ، هذا خط أَحمد بن حنبل كيف كتب لك ؟ قال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، ففقدنا أَحمد بن حنبل أَيامًا ثم جئنا إليه لنسأَل عنه ، فقال لنا أَهل الدار التي هو فيها : هو في ذلك البيت فجئنا إليه والباب مردود عليه وإذا عليه خلقتان ، فقلنا له : يا أَبا عبد الله ، ما خبرك ؟ لم نرك منذ أَيام ؟ فقال : سرقت ثيابي ، فقلت له : معي دنانير فإن شئت خذ قرضًا وإن شئت صلة ، فأَبى أَن يفعل ، فقلت : تكتب لي بأُجرة ؟ قال : نعم ، فأَخرجت دينارًا فأَبى أَن يأَخذه وقال : اشتر لي ثوبًا واقطعه نصفين ، فأَومأَ إلي أَنه يتزر بنصف ويرتدي بالنصف الآخر ، وقال : جئني ببقيته ، ففعلت وجئت بورق فكتب لي ، فهذا خطه .

وفي رواية أُخرى أَنه كتب له ما سمعه من ابن عيينة .

وقد روى صالح بن أَحمد بن حنبل ، قال : « أدخلت على أَبي في أَيام الواثق والله يعلم في أَي حالة نحن ، وقد خرج لصلاة العصر ، وكان له لبد يجلس عليه قد أَتت عليه سنون كثيرة قد بلي ، فإذا ثمة كتاب كاغد ، وإذا فيه : بلغني يا أَبا عبد الله ما أَنت فيه من الضيق ، وما عليكَ من الدَّين ، وقد وجهت إليك بأَربعة

آلاف درهم على يدي فلان لتقضي بها دينك ، وتوسع بها على عيالك ، وما هي من صدقة ولا زكاة ، وإنما هو شيء ورثته عن أبي ، فقرأت الكتاب ووضعته ، فلما دخل قلت : يا أبت ، ما هذا الكتاب ؟ فاحمر وجهه وقال : رفعته منك ، ثم قال : تذهب بجوابه ، فكتب إلى الرجل : وصل كتابك إلي ونحن في عافية ، فأما الدَّين فإنه لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم في نعمة الله والحمد لله ، فذهب بالكتاب إلى الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل فقال : ويحك ، لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلاً في دجلة كان مأجورًا ، لأن هذا الرجل لا يعرف له معروف ، فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك ، فرد عليه الجواب بمثل ما رد فلما مضت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها ، فقال : « لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت » .

هذه واحدة من قصص كثيرة ، وسيجد القارئ في كتاب « المناقب » أشياء كثيرة من هذا النوع .

الله أكبر ، كيف كانت همم الرجال ، ونفوس الصالحين ، أين هذه النماذج ممن يحرص على جمع الدنيا ، ويتتبع سبلها ، ويحرص على كثرتها ؟ إن الدنيا محنة وفتنة وما اتجه إليها عالم إلا هبط في أعين الناس ، وما تجنبها عالم إلا وضع الله له القبول والهيبة في قلوب العباد ، وهكذا كان أحمد ــ رحمه الله ــ فهل من متعظ !

٤ ــ ومما له صلة بما تقدم زهد الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ وانقطاعه عن الدنيا إلا ما يصلح شأنه ، فلم تكن الدنيا همه ، ومن صبر على الفقر والمشقة والخشونة طول حياته ، كان همه الآخرة والعمل الصالح ، والخوف من الله سبحانه وتعالى ، يقول سليمان بن الأشعث : ما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط ، وكان قوته وقوت أسرته من غزل زوجته .

روى صالح ابنه أن أباه قال : « كانت والدتك في الغلاءِ تغزل غزلًا دقيقًا ، فتبيع الأستار بدرهمين أقل أو أكثر فكان ذلك قوتنا » .

وروي عن أبي بكر المروذي أنه قال : سمعت أبا عبد الله يقول : « أسرّ أيامي إلي يوم أصبح وليس عندي شيء » .

وقد قال صالح بن أحمد لأبيه : بلغني أن أحمد الدورقي أعطي ألف دينار ، فقال : يا بني ﴿ ورِزقُ ربّكَ خيرٌ وأبقى ﴾[1] وذكر له ابن أبي شَيبة وعبد الأعلى النَّرسي ومن قدم به إلى العسكر من المحدثين فقال : إنما كانت أيامًا قلائل ثم تلاحقوا ، وما تخولوا منها بكبير شيءٍ . وذكر عنده يومًا رجل فقال : يا بني ، الفائز من فاز غدًا ولم يكن لأحد عنده تبعة .

هكذا كان أحمد ــ رحمه الله ورضي عنه ــ نموذجًا في الزهد ، منصرفًا للآخرة مبتعدًا عن الدنيا وزخارفها ، لا تستثيره أخبارها ولا تستميله شؤونها ، مُعلقًا أمله بربه ، وما عند الله خير وأبقى . نسأل الله أن يرزقنا القناعة .

٥ ــ وكان ــ رحمه الله ورضي عنه ــ ورعًا إلى حد أنه يبتعد تنزهًا وورعًا عن أشياء ليست محرمة ، وكل شيء يشتبه فيه يتحرج منه ويبتعد عنه ، ومن ذلك كل ما يتصل بصلات الولاة ، وعطاياهم .

ومما روته كتب المناقب عنه : أن المأمون دفع مالا إلى إسحاق بن موسى الأنصاري وقال : قسمه على أصحاب الحديث فإن فيهم ضعفاء ، فما بقي منهم أحد إلا أخذ ، إلا أحمد بن حنبل : فإنه أبى .

ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل : « دخل عليَّ أبي ــ رحمه الله ــ في مرض يعودني ، فقلت : يا أبت ، عندنا شيء قد بقي مما كان يبرنا به المتوكل ، أفأحج منه ؟ قال : نعم ، قلت : فإذا كان هذا عندك هكذا فلم لم تأخذ ؟ قال : يا بني ، ليس هو عندي حرام ، ولكني تنزهت عنه » .

ومن شدة ورعه رحمه الله أنه مع شدة حفظه وضبطه للحديث لا يحدث غالبًا إلا من كتاب .

---

(١) سورة طه : ١٣١ .

وحدث إبراهيم الحربي قال : لزمت أحمد بن حنبل سنتين ، فكان إذا خرج يحدثنا يخرج معه محبرة مجلدة بجلد أحمر وقلمًا ، فإذا مر به سقط أو خطأ في كتابه أصلحه بقلمه من محبرته ، يتورع أن يأخذ من محبرة أحدنا شيئًا ، وكنا نقول لأحمد في الشيء : تحفظه ؟ فيقول : لا ، إلا من كتاب .

وقد ذكر أن أحمد بن حنبل أتى عليه ثلاثة أيام ما كان طعم فيها ، فبعث إلى صديق له فاستقرض شيئًا من الدقيق ، فعرفوا في البيت شدة حاجته إلى الطعام ، فخبزوا له بالعجلة ، فلما وضع بين يديه قال : كيف خبزتم هذا بسرعة ؟ فقيل له : كان التنور في بيت صالح مسجورًا فخبزنا بالعجلة ، فقال : ارفعوا ، ولم يأكل ، وأمر بسد بابه إلى دار صالح .

٦ ــ وكان ــ رحمه الله ــ معرضًا عن الولايات والمناصب فلم يدخل في شيء منها خوفًا على دينه وذمته ، ولعل عذره في ذلك أنه يخشى من تدخل السلطان في قضائه ، أو أنه يعتقد أن هناك من هو أولى منه وإلا فمنصب القضاء قد يتعين على العلماءِ إذا لم يوجد أفضل منهم ، لأن به تقام الشريعة ويحكم بالعدل وتستقيم أمور الناس ، والمجتهد إذا اجتهد وأخطأ فهو مأجور ، وأجر الحاكم بشرع الله عظيم ، ورسولنا ﷺ وخلفاؤه الراشدون كلهم قضوا بين الناس ، وهم قدوة الأمة .

ومما يروى في عزوف أحمد ــ رحمه الله ــ عن الولاية ما حدث به إبراهيم المزني قال : قال الشافعي ــ رحمه الله ــ : لما دخلت على هارون الرشيد قلت له بعد المخاطبة : إني خلفت اليمن ضائعة تحتاج إلى حاكم ، فقال : انظر رجلًا ممن يجلس إليك حتى نوليه قضاءها ، فلما رجع الشافعي إلى مجلسه ، ورأى أحمد بن حنبل من أمثلهم أقبل عليه فقال : إني كلمت أمير المؤمنين أن يولي قاضيًا باليمن وإنه أمرني أن أختار رجلًا ممن يختلف إلي وإني قد اخترتك فتهيأ حتى أدخلك على أمير المؤمنين يوليك قضاءَ اليمن ، فأقبل عليه أحمد وقال : إنما جئت إليك لأقتبس

منك العلم ، تأمرني أن أدخل لهم في القضاءِ ؟ ! ووبخه فاستحيا الشافعي .

وفي رواية أن الشافعي قال له : إن أمير المؤمنين سألني أن ألتمس له قاضيًا لليمن ، وأنت تحب الخروج إلى عبد الرزاق ، فقد نلت حاجتك تقضي بالحق وتنال من عبد الرزاق ما تريد ، فقال أحمد للشافعي : إن سمعت منك هذا ثانية لم ترني عندك .

٧ ــ وكان ــ رحمه الله ــ متواضعًا ، والتواضع صفة عظيمة من صفات العلماءِ ، فليس العالم الذي يغتر بعلمه ، أو جاهه أو منصبه ، وإن حصل ذلك فسد قلبه ، وضعف إيمانه ، وقل أثره ، ولكن العالم الحق هو الذي يعتبر نفسه فقيرًا لرحمة الله ، ويرى نفسه مهما بلغ في حاجة إلى التزود من العلم وأنه لا فضل له على غيره .

ولنا في إمامنا أحمد ــ رحمه الله ــ قدوة حسنة ، فقد بلغ من العلم شأوًا عظيمًا وعظمه الناس ، واعترفوا له بالفضل ، ومع كل ذلك فكان ينفر من الجاه والشهرة والذكر ، ويتناسى ما هو عليه ، ويتواضع لغيره ، ولا يفتخر بما وصل إليه .

يقول يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير .

ويقول صالح بن أحمد : كان أبي ربما أخذ القدوم ، وخرج إلى دار السكان يعمل الشيء بيده ، وربما خرج إلى البقال فيشتري الجُرْزَة من الحطب ، والشيء فيحمله بيده .

ويروى أن شيخًا من أهل خراسان قال لأحمد: يا أبا عبدالله ، الله ، الله ، فإن الناس يحتاجون إليك، قد ذهب الناس فإن كان الحديث لا يمكن فمسائل، فإن الناس مضطرون إليك ، فقال أبو عبد الله : إلي أنا ؟ ... واغتم من قوله ،

وتنفس الصُّعَداء ، ورئي في وجهه أثر الغم .

ويقول محمد بن أحمد بن واصل : سمعت أبا عبد الله غير مرة يقول : من أنا حتى تجيئوا إلي ؟ من أنا حتى تجيئوا إلي ؟ اذهبوا اطلبوا الحديث . ويقول أبو بكر المروذي : سمعت أحمد بن حنبل ــ وذكر أخلاق الورعين ــ فقال : أسأل الله أن لا يمقتنا ، أين نحن من هؤلاء ؟

وقلت لأبي عبد الله : ما أكثر الداعين لك ! فتغرغرت عينه ، وقال : أخاف أن يكون هذا استدراجًا ، أسأل الله أن يجعلنا خيرًا مما يظنون ويغفر لنا ما لا يعلمون .

هكذا تواضع العلماء ، وبُعدهم عن الخيلاءِ والصَّلَف ، وقد عرف الله صدق أحمد ــ رحمه الله ــ في هذا فكتب له من الشهرة ما لم يكن لغيره .

٨ ــ والعزلة والابتعاد عن الخلق قد تكون مناسبة أحيانًا حينما يعتقد العالم أنها أصلح له ، وأن المصلحة المترتبة عليها تترجح على المفسدة المترتبة على الاختلاط بالناس . وقد يكون فيها لذة المناجاة لله ، والتفكُّر في عجيب مخلوقاته ، ومآل الدنيا وزوالها ، وقد تكون من أجل طلب علم ، وقد تكون غضبة لله سبحانه إذا عرف العالم أن ما غضب من أجله سيزول باعتزاله المجتمع .

والإمام أحمد ــ رحمه الله ــ يتحرى المصلحة في تصرفاته ، فقد صبر على البلاءِ والمحن والأذى ، وجهر بكلمة الحق يوم أن كانت مصلحة الإسلام والمسلمين تدعو إليه واعتزل وآثر الوحدة حينما لم يكن ذلك .

يقول ابنه عبد الله ــ رحمه الله ــ : كان أبي أصبر الناس على الوحدة . ويقول أيضًا : لم ير أحد أبي إلا في مسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض ، وكان يكره المشي في الأسواق .

وقد يكون مرد هذا ــ والله أعلم ــ المحافظة على الوقت ، والاستفادة من

الفرص فليس العالم الذي تضيع منه الأوقات دونما فائدة ، بل هو الذي لا تمر به ساعة إلا في علم وعمل ومصلحة للمسلمين . وفي قصص العلماء الأفذاذ من سير حفظ الوقت ، والتضحية بشهوات الدنيا وملذاتها ما يدل على ذلك .

ويروى عن أحمد ــ رحمه الله ــ أنه قال : رأيت الخلوة أروح لقلبي . وقال في مناسبة من المناسبات : أريد النزول بمكة ألقي نفسي في شعب من تلك الشعاب حتى لا أعرف .

وهكذا تواضع أحمد ، ورغبته عن الشهرة ، ولعله ــ والله أعلم ــ رأى أن غيره من بعض العلماءِ من افتتن بها ، فصرفته عن الحق .

ومما يروى في رغبته عنها أن عمه دخل عليه ويده تحت خده فقال له : يا ابن أخي ، أي شيء هذا الغم ؟ أي شيء هذا الحزن ؟ فرفع أحمد رأسه ، فقال : يا عم ، طوبى لمن أخمل الله عز وجل ذِكره .

وكان ــ رحمه الله ــ ينهى الناس عن اتباعه وهو يمشي في الطريق . يقول ابنه عبد الله : كان أبي إذا خرج يوم الجمعة لا يدع أحدا يتبعه ، وربما وقف حتى ينصرف الذي يتبعه .

٩ ــ أما خوف الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ من الله فقد بلغ فيه مبلغًا كبيرًا حتى كان كثير الهم والغم ، والخوف من العاقبة ، وكثير التعبد لله ، طاعة له ورجاء في مثوبته ، وخوفًا من عقابه .

يقول صالح ابنه : كان أبي إذا دعا له رجل يقول : الأعمال بخواتيمها ، وكنت أسمعه كثيرًا يقول : اللهم سلِّم سلِّم .

ويقول ابنه عبد الله : سمعت أبي يقول : وددت أني نجوت من هذا الأمر كفافًا لا عليَّ ولا لي .

ويقول المروذي : سمعت أبا عبد الله يقول : الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب مما أشتهيه .

وقال أيضًا : دخلت على أحمد يومًا فقلت : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف أصبح من ربه يطالبه بأداءِ الفرض ، ونبيه يطالبه بأداء السنة ، والملكان يطالبانه بتصحيح العمل ، ونفسه تطالبه بهواها ، وإبليس يطالبه بالفحشاءِ ، وملك الموت يطالبه بقبض روحه ، وعياله يطالبونه بالنفقة ؟

ولقد سار الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ في حياته سيرة الزهاد والعباد الذين انقطعت آمالهم في الدنيا ، واتجهوا إلى الله في كل أعمالهم ولم يأخذ من هذه الدنيا إلا ما يبلغه رضوان الله .

كان رحمه الله فريدًا في العلماء ، جمع بين العلم والعمل ، وبين التواضع والزهد ، وبين القوة في الحق ، وإنكار الذات .

١٠ ــ أما ثباته على الحق ، وصدقه فيه ، وصبره على الأذى فأمر رافقه طوال حياته ، وكان المثل الرائع في ذلك ، لقد امتحن بالشهرة فصبر ، وامتحن بطلب الولاية والرياسة فأعرض وصبر ، وامتحن بمحن كثيرة إلا أن أبرزها أمر عجيب لا يصبر عليه إلا الأفذاذ من الرجال ، ذلكم هو امتحانه بالقول بخلق القرآن ، وصبره على مالاقاه في سبيل ثباته على عقيدة السلف ــ القول الحق في ذلك ــ من أن كتاب الله كلام الله نزله على نبيه ﷺ .

إن قصته في ذلك مع عدد من خلفاءِ بني العباس قصة فيها الكثير من الدروس والعبر ، وقد كتبت فيها الكتب والروايات ، وإنها لتستحق أكثر وأكثر ، إذ إن فيها منهجًا راشدًا للعلماءِ والدعاة في كل وقت . لقد امتحن المأمون العلماء ، وبعث بكتبه إلى ولاته ليحملوا الناس على القول بخلق القرآن ، فأجاب أكثرهم ، وممن امتنع : الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وعبيد الله بن عمر القواريرى ، والحسن بن حماد سجادة . ثم أجاب الأخيران ، وبقي أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح في السجن ، ثم أمر بهما فحملا إليه في طرسوس مقيدين زميلين .